

## مقدمة المؤلف

بنيت القصة التالية على عدد كبير من الرسائل الخاصة التي تبادلها اثنان من رجال الأعمال فى القرن التاسع عشر، أحدهما هو «الفرد أندريه» Alfred Andre أحد كبار رجال المال الدوليين، والآخر «إدوارد ديرفيو» Edward Dervieu أحد الممولين الخصوصيين لخديوى مصر. وقد وصل عدد تلك الرسائل التى تغطى الفترة ما بين عامى ١٨٥٨، ١٨٦٨ إلى ما ينوف على مائة الرسالة وكان نصيب أندريه منها أقل من النصف. ولقد كان أندريه بدقته المنهجية يحتفظ بنسخ من الرسائل التى يرسلها، قبل اختراع الآلة الكاتبة بزمان بعيد. وهذه الرسائل طويلة بحيث يصل طول الرسالة فى بعض الأحيان إلى ست أو سبع صفحات كما أنها كانت تتميز بالوضوح والصراحة التامة، ويمكن القول بوجه عام أن هذه الرسائل توحى بالحديث الشخصى المباشر الصريح أكثر مما توحى بالتبادل المدروس للأفكار على الورق.

وقد وجدت تلك الرسائل فى إحدى حجرات أرشيف بنك فرنسا حيث كانت محفوظة مع السجلات التجارية لبنك أندريه، وهو الآن بنك دى نيفيليز شلومبرجر وشركاه. وقد أثبت موظفو تلك الشركة سعة أفقهم إذ إنهم كانوا من الكرم بدرجة أنهم سمحوا لأجنبى مثلئى بدخول حجرات الأرشيف، خارجين بذلك عن تقاليد فرنسا التجارية. وإنى مدين فى ذلك بوجه خاص للسيدىين كوستا دى بورجرارد وكرستيان مونيير اللذين تخطيا بكرمهما ومساعدتهما القيمة حدود الضيافة.

وقد يكون من السهل تأليف كتاب عن تلك الرسائل، التى تمد المؤرخ بخيط جاهز لقصة. ولكن من ناحية أخرى فإن وجود ذلك الخيط سلفا يطرح مشاكل خاصة. فالكاتب يجد نفسه مضطراً إلى أن يتتبع هذا الخيط وينسج حوله، وبذلك يجد نفسه فى بعض الأحيان فى أماكن غريبة غير متوقعة. باحثاً عن مواد ربما كان يتجاهلها أو يهملها لولا هذا الخيط. وفى الواقع تفرض الخطابات فى حد ذاتها على المؤرخ البحث، إذ إن عليه أن يقدم المعلومات الضرورية حتى تصبح الرسائل مفهومة داخليا فى تسلسلها وفى محتوياتها الكلية.

وقد أثارَت رسائل «أندريه - ديرفيو» صعوبات جديدة. والواقع أن العلاقة بين الرجلين تصبح مفهومة من خلال الإطار الثلاثى الذى يربط بين مهنة البنوك، والعلاقات الاقتصادية، ومركز مصر عام ١٨٦٠. ومن المستحيل فهم أى الرجلين إلا إذا عرفنا مركز كل منهما فى شبكة الشؤون المالية العالمية واسعة النطاق، ويستحيل تقدير اهتمامهما بإحدى الدول - وهى فى هذه الحالة إحدى دول الشرق الأدنى - دون الإلمام بازدهار الشركات فى هذه السنوات، والتأثير

الدمر لذلك على توازن مهنة كانت فى العادة متواضعة، وتزايد اهتمام رأس المال الأوروبى (خصوصاً البريطانى) بالاستثمار فى الخارج. ويستحيل كذلك أن نفهم نجاح هذه الشركات وفشلها فى مصر دون أن نأخذ فى الاعتبار تأثير رواج القطن على الاقتصاد المصرى ومركز الرجل الغربى فى المجتمع المصرى.

تلك الاحتياجات هى التى حددت تنظيم هذه الدراسة. وقد خصصت الفصول الثلاثة الأولى لإعداد المسرح، أى تقديم إطار للقارئ يمكن من خلاله أن تكون قصة ديرفيو وأندريه مفهومة. فإذا كان الفصلان الأولان على الخصوص طويلين ومزدحمين إلى حد ما، فإن سبب ذلك يعود إلى أنه لا يوجد تحليل آخر مشابه، لا عن تركيب المالىة الدولية ولا عن توسع رأس المال الأوروبى فى فترة عام ١٨٦٠. ولقد كان من الممكن أن نبدأ بالقصة أولاً ثم نقطعها بعد قليل ونخرج عن الموضوع من حين لآخر للدخول فى شرح طويل وهذا ما لم نستسغه. وقد حاولت هنا أن أقلد المصور السينمائى الذى يقدم أولاً منظراً بانورامياً قبل أن يدخل فى الموضوع الأساسى.

وبوجه عام فقد بُذلت مجهودات كبيرة لكى نزيل من هذه الفصول الأولى كل ما ليس له صلة مباشرة بالقصة. ولم يكن تحقيق ذلك من الممكن دائماً، والسبب فى ذلك يرجع إلى أن التعميمات المقدمة تتعارض إلى حد ما مع التفسير التقليدى للتاريخ الاقتصادى وهذا ما يحتاج إلى تأييد- ولناخذ على سبيل المثال تحليل الثورة المالىة فى الفترة ١٨٥٠-١٨٧٠ وتقييمها وتوقيت آثارها على الكيان المصرفى القائم- فالتركيز لا يمكن الحصول عليه أحياناً إلا إذا ضحينا بالدقة والمنطق والجو العام. بعدم الخوض فى الحديث عن الظروف والعوامل. والجو العام لهذه المرحلة هو أحد الأهداف الأولية لهذه الفصول الأولى.

ويجب أن نوضح هنا أنه على الرغم من أن الفصول الأولى الخاصة بالشئون المالىة قد سبقت لأسباب تنظيمية قصة ديرفيو إلا أن المنطق يجعل هذا الفصل تطوراً طبيعياً لهذه المراسلات. فهى تمثل جهداً فى ذاته لدراسة بناء الأعمال المصرفية العالمية فى منتصف القرن التاسع عشر. ولكنه يسترشد ويستلهم مواده من أرشيف بنك Neufize وغيره من المصادر الأخرى الهامة المشابهة.

فوضع هذه الفصول إذن لا يعنى الرغبة فى تقديم قضية معينة فى ضوء إطار عام سبق تصوره، بل إن الصورة العامة مأخوذة من هذه القضية وقضايا أخرى معينة يمكن بسهولة أن تتقدم القصة أو تأتى فى مؤخرتها، لو لم تكن هناك عقبات فى فهم المراسلات.

ومع ذلك فواجب المؤرخ ليس مجرد تقديم رسائله وإحاطتها بتلك المواد التى توضحها، بل يجب عليه أن يستخلص من هذه الرسائل أقصى ما يمكن استخلاصه من المعلومات ويظهر بقدر

الإمكان دلالتها للقوى التاريخية الكبرى، والتي تعتبر هذه الرسائل تعبيراً خاصاً لها. ولما كانت رسائل ألفريد أندريه وإدوار درفيو لا تفهم إلا ضمن أبعاد كثيرة، كان معنى ذلك أن دلالتها مضاعفة، وعلى المؤرخ إذن أن يتتبع مرة أخرى الاتجاه الذى يؤدي إليه الخيط. ومن ناحية فإن هذه الخطابات، على قدر معلوماتي، تقدم للمؤرخ الاقتصادي فرصة النظرة الثاقبة المباشرة إلى طرق ودوافع القوى المالية الدولية كما يراها شخصان مستقلان من ذوى المراكز العالية. وفى نفس الوقت فإنها تلقي ضوءاً على التباين فى التصرف فى الشؤون المالية بين شخصين يختلفان اختلافاً تاماً فى النشأة والشخصية. وتقدم دليلاً مقنعاً لأهمية العنصر الإنسانى المنفذ فى تحديد سرعة واتجاه التطور الاقتصادى.

وتعتبر الرسائل من ناحية أخرى وثيقة فى تاريخ الامبريالية، كما أنها تقدم للمؤرخ السياسى والدبلوماسى الدليل المباشر على الدور الذى لعبه رجال الأعمال الأوروبيون فى نشأة الدين المصرى، كما تلقي ضوءاً جديداً على مسئولية الخديوى فى الإفلاس الأخير. وهى بالإضافة إلى الأرشيف الديبلوماسى لهذه المرحلة تعطى صورة واضحة عن الصلة الوثيقة الشاذة بين ضغط الدوائر السياسية والمالية من أجل تحقيق أهداف خاصة، كما تبين التوافق والتضارب بين المصالح الشخصية والوطنية وكذلك الاختلافات الهامة فى الأهداف والوسائل من دولة لأخرى، ومن قنصل لآخر، وبالاختصار فإنها تعطى قوى تاريخية كبيرة توصف غالباً بطريقة سطحية رتيبة، عمقاً وتنوعاً.

واليوم بالطبع، عندما أصبحت الإمبريالية كلمة قذرة، وعندما أصبحت علاقة الدول الأوروبية بالعالم الإسلامى تثير قلق الجميع فإن قصة ديرفيو تزداد أهميتها. أولاً: لأنها تقدم لنا عدداً من الموضوعات المحددة- مسألة قناة السويس مثلاً- التى استعادت كل أهميتها التى كانت لها فى القرن الماضى، نتيجة الأحداث القريبة. ثم سبب آخر وهو أن أهميتها أبعد من أن تتعلق بمصر وحدها. إن أماننا فى حيز ضئيل معظم المشاكل الكبرى التى مازالت تواجه كل لقاء بين الشرق والغرب: التباين المادى والتكنولوجى، عدم المساواة السياسية، المناورات والتدبير فى الشؤون التجارية والمالية، وأكثر من ذلك كله العجز عن فهم الأوضاع الاجتماعية والثقافية. إن تسلل أوروبا المتوسعة فى العصر الصناعى الجديد إلى مصر فى القرن التاسع عشر لم يكن نموذجاً لأساليب الالتفاف حول الشرق فحسب ولكنه كان بداية مرحلة جادة جداً لإحدى مآسى التاريخ فى الألف سنة الماضية: مأساة التقاء حضارتين.

وما زالت هذه الفترة تكشف عن نفسها، ومن دراسة خبرة ديرفيو يمكننا أن نتعلم شيئاً عن عصرنا. والحق أننا نتعلم من هذا شيئاً أكبر مما تعلمه لنا الأحداث الجارية. وهكذا فإن

المصادر (الخاصة والعامة) التي حصلنا عليها من القرن الماضي تفصح بصراحة - وأحياناً بسذاجة - عما لا يمكن قبوله اليوم. وفي نفس الوقت فإننا نرى بداية التمثيلية عندما كان ستار المسرح مازال مسدلاً والصراع ما زال في بدايته، كما نحس بعمق الهوة بين عالمين وعبث المشاركة بين شريكين غير متكافئين، وصعوبة المهمة التي تواجهنا اليوم. ويبدو أحياناً ونحن في القرن العشرين أننا نعيش في عالم من الفانتازيا الذلقة: شعارات سهلة، ابتسامات سريعة، إخلاص متدفق، وتفاؤل السياسيين الذين يفكرون ويتكلمون ويتصرفون بما تمليه عليهم العلاقات العامة. ومن حسن الحظ أنه لا يوجد مثل التاريخ معلماً للناس كي يواجهوا الحقائق. وقد بذل مجهود في هذا المجلد لإظهار الجوانب المختلفة للمراسلات التي تمت بين أندريه، وديرفيو ومعناها، غير أن تناول هذه الجوانب كان خاضعاً من ناحية المبدأ لتطور القصة التي تفصح عن نفسها. أما الفصول الأخيرة والخاتمة فهي لا تتعلق كثيراً بالتحليل الاقتصادي والسياسي التفصيلي بقدر ما تتعلق بعبارة القصة. ذلك أن ظهور ديرفيو وسقوطه في مصر يعتبر في حد ذاته قصة جيدة لها عناصر الدراما الهامة وعبوبها أيضاً. وهي تستحق التناول بهذا الشكل ولا سيما أن المؤرخ الاقتصادي لا يجد في الغالب متعة العمل في مثل هذه الموضوعات أو مزاياه.

\*\*\*

واني أنتهز هذه الفرصة لكي أعبر عن شكري لكل أولئك الذين ساهموا فكرياً ومادياً في إظهار هذه القصة إلى الوجود. إن الكتاب في الواقع نتاج ثانوي لدراسة أوسع عن الدور الذي لعبه رجل الأعمال في التطور الاقتصادي الفرنسي. وقد عثر على وثائق القصة خلال القيام ببعثة بحوث عام ١٩٤٨-١٩٤٩ تمولها جامعة هارفارد ولجنة البحوث في التاريخ الاقتصادي. وقد استطعت بفضل معونة جمعية الزملاء بجامعة هارفارد أن أقوم بأعمال أكبر في أوروبا عام ١٩٥٢-١٩٥٣ ثم مكنتني معونة مجلس أبحاث العلوم الاجتماعية من أن أقوم برحلة أخرى في صيف عام ١٩٥٥ لبحث بعض النقاط المعلقة وحسمها. وخلال هذه الفترة أمكن تسهيل هذا البحث وغيره من الأبحاث من وقت لآخر بواسطة المنح التي كانت تقدمها جمعية الأبحاث الاجتماعية والعلمية ومؤسسة فورد ومنحة الزمالة في مركز الدراسات العالية في علوم السلوك. وآمل أن يكون هذا التاريخ تعويضاً جزئياً عن الصبر والعطف اللذين منحتني إياهما هذه الهيئات.

وفي فرنسا فإني مدين بالشكر لكوستادي برجاراد M.H. Costa de Beauregard موظفي بنك دي نيغلير، شلومبرجو وشركاه De Neufelize. Schlumberger el Cie الذين تخطى عونهم وفهمهم

حدود الضيافة والكرم. ولعل هذا المثل فى الاستنارة يكون نموذجاً ومشجعاً للآخرين. وانى مدين بالشكر أيضاً للسيدى ميشيل فرانسوا وبرتراند جيل Michel Francais, Bertrand Gill اللذين يعملان فى الأرشيف القومى بفرنسا واللذين سهلا لى العمل فى قسمهما الجديد المتعلق بالأرشيف الاقتصادى والخاص فى أفضل الظروف ودون اعتبار للوقت. وأشكر كذلك السيدة أوزامان Ozaman التى تعمل فى وزارة الخارجية الفرنسية لتعاونها فى البحث والحصول على مستندات لم تكن مدرجة «بالكتالوج»، وكثيرين غيرهم يصعب حصر أسمائهم هنا ولكنهم بطريقة أو بأخرى أضافوا شيئاً إلى هذه الدراسة وعلى الخصوص م. جيل M.Gille الذى ساهم مساهمة كبيرة، فهو الذى أعد نسخة مكتوبة على الآلة الكاتبة من المراسلات وذلك عندما اضطرت إلى مغادرة فرنسا عام ١٩٤٩ قبل أن أتمكن من قراءتها كلها، وقد استمر كذلك فى إمدادى بمعلوماته التى لا تبارى عن مصادر الأرشيف الخاصة بالتاريخ الاقتصادى لفرنسا.

وفى إنجلترا، قرأ المرحوم بول هـ. إيمن الفصول الأولى الخاصة بالأعمال المصرفية وأمدنى بمعلومات قيمة عن تاريخ حياة بعض الذين لهم دور فى هذه القصة. وكان السيد كينيث جوشين Kenueh Goschen من الكرم إلى حد أنه سمح لى بالاطلاع على السجلات الخاصة بشركة عائلته وهى فروهلين وجوشن. Fruhling&Goschen وهم أول من دفع بالأوراق المالية المصرية فى سوق لندن.

وفى الولايات المتحدة الأمريكية قام السيد كارل لوك Carl Lokke من الأرشيف القومى بمساعدتى على البحث فى سجلات القنصلية المصرية. وفى نفس الوقت قدم عدد كبير من المدرسين والأصدقاء لهذا الكتاب فوائد جليلة بقراءة ونقد جزء أو كل المخطوط. ومن بين الذين جادوا بوقتهم ومعلوماتهم الأستاذة هرج إيتكن سيجموند Haugh Aitken Sigmund وستانلى ستاين Stanley Stein فى مركز الأبحاث فى جامعة هارفرد والسيدة Diamond الأستاذة حرم رالف هيدى Ralph Hidy من جامعة نيويورك فى مدينة نيويورك. والسيد برونر F.H. Brumer من Arnhold و Bleichrodea من أصحاب البنوك التجارية. والدكتور فرتز ريديك Fritz Redlick من جامعة هارفرد الذى قرأ الفصول الخاصة بالبنوك واقترح عديداً من التصحيحات والتحسينات. وقد ساعدت الأستاذة هلين رفلينى Helen Rivliu من جامعة ماري لاند فى تلك الموضوعات الخاصة بماضى مصر، وهى من الموضوعات التى كنت أحتاج فيها إلى النصيحة، والسادة هوج ميلين Hugh Meleau وجورج سوليس George Soulis وهما عضوان فى جمعية الزملاء بجامعة هارفرد وقد لفتا نظرى إلى - كما ترجم لى - بعض المواد عن الروسية واليونانية. وقد قام البروفسور ليلاند جنكز Leland H. Jenks من كلية ولزلى بقراءة المخطوط بأكمله مختصراً

بعض النقاط محسناً فى الأخرى وكانت انتقاداته فى مجموعها ذات قيمة كبيرة فى الإيضاح :  
إلى هؤلاء جميعاً أقدم أخلص شكرى .

ثم هناك هؤلاء الذين ساهموا بأشكال أخرى.. السيدة كالستا أوبيرت التى أعدت معظم  
فهرس الأسماء، وابنتى جين التى ساهمت فى تصحيح المخطوط. وفوق كل هؤلاء الآنسة مارى  
فرنسواز بيرييت كودو التى سهلت بعنايتها وفكرها مهمة البحث منذ رحلتى الأولى إلى فرنسا  
عام ١٩٤٨ .

وأخيراً فإننى مدين بالشكر بصفة خاصة لصديقين ومدرسين لى: دكتور آرثر كول من جامعة  
هارفارد، والأستاذ دونالد ماكاي الأستاذ السابق بجامعة هارفارد وحاليا بكلية أمهرست: إنهما  
لم يساعدا فى هذا البحث فحسب، بل ساعدانى وشجعانى بكل طريقة منذ بدء تخرجى فى  
الجامعة وتدريبى فى البحوث. ولقد تم إنجاز البحث الموجود فى هذا الكتاب تحت  
توجيههما، وبدونهما لم يكن من الممكن لهذه القصة أن تكتب.